تَتَقَبَّب في شَهْقَةِ الطِّين

جمال القصاص

لم يكنْ ظلَّها.
كان محضَ فراغٍ يدورُ على نَفْسِهِ.
وهيَ تَنْسَلُّ من مائِها.
تَتَقَبَّبُ في شَهْقَةِ الطِّينِ
عاريةً من رحيق الثِّيابِ
ومِنْ مطر الشعراءِ.
الرِّياح دفاترُ أيَّامِهَا.
والهواءُ وسادةُ أعضائِها.

الأصابعُ أشرعةٌ
فوق سرَّتِها حجرٌ نائمٌ
ومسوَّدةٌ من غبارٍ.. سيزهرُ بَعْدَ قليلٍ
وبعد قليلٍ..
يطوفُ.. ويدخلُ فيما وراءَ القميصِ:
سفائنُ غرقى، هياكلُ من معدنٍ غامضٍ
تَتَلألأُ، شمسٌ ممزَّق بُرْنُسَهَا، تتأوَّهُ
في رَقْرَقاتِ الرتوشِ، وتَشْخُبُ.. نَايٌ
قديمٌ يطاردُ بَحَّتَهُ تحت سَفْحِ الرموشِ..

وداعاً لأرجوحةِ الطِّفلِ
للشرفاتِ..
وأهلاً بملْحِ المتاهةِ
أهلا بحِبْرِ الجذورْ.

طَرْقَةٌ.. طَرْقَتَانِ
ويَنْهَمُرُ الضَّوءُ..
رأسُ إيزيسَ مشتعلٌ
والسَّماءُ على حافةِ السَّطحِ
: خُذْ آهتي
واسْحَبِ البحرَ مِنِّي.
رَجَّ صَلْصَالَ أنَّتِها
وتأمَّلْ لهوَ الفضاءِ على الكتفينِ
الشُّقوقُ توصوصُ..
خَرْبَشَةٌ تتهجَّى أصابِعَهَا.
يتسلَّق قامَتَها
ويموُّهُ تكويرةَ الثَّدي
ذوَّبَهُ في صلاةِ الجهاتِ
الينابيعُ تَهْدُرُ..
والعشبُ يرسمُ مجرى الخطوطِ:

هنا سوف يهبطُ جيشُ الغزاةِ
يدقُّون أوتادَهُمْ تحت قوسِ الشِّفاهِ،
ويبتهلونَ..
الحمامةُ تُفْلِتُ
والطُّوقُ يركضُ

ـ كانَ بالأمسِ طفلاً
يزيِّنُ أقمارَهُ بالمحارِ
ويَنْثُرُها في حنايا الرسومِ
الكراريسُ حقلٌ من البرتقالِ
وصوتُ المغنِّي بعيدٌ..
يشبِّكُ إصْبَعَهُ في يَدِ البنتِ
رائحةُ الخبزِ طازجةٌ
والمساءُ يطيرْ.

طَرْقَةٌ.. طرقتانِ
يُشِعُّ البياضُ..
يقلِّبُ أنفاسَهُ..
الغيمُ يَنْقُشُ أجنحةَ الشَّهواتِ
وعصفورةُ البابِ سابحةٌ في فراغِ التُّخومِ:
هنا سوف يجلسُ «دالي»
يُدَحْرِجُ أنجمَهُ فوق صدر الزجَّاجِ
ويَفْتِلُ شاربَهُ شَرَكاً للنساءِ
ويرمي «لإيلوارَ» صَرْخَتَهُ.

– : هل تخافينَ

لا.
سَمِّني زهرةَ العتباتِ
ويتصلُ الماءُ بالماءِ
يمشي..
تفورُ التَّمائِمُ
كم وردةً سوف تغتالُ أحصنتي؟!

التفاصيلُ شائكةٌ:
في المثلثِ ضَلَّت صَبَابَتَها
موجةٌ.
شَقّقَ الصَّخرُ قمصَانَهَا
حطّتِ الرِّيحُ..
لفَّتْ عباءَتَها فوقها
وبَكَتْ.

هكذا:
دائماً مَرْأةٌ تنتظرْ
دائماً رجلٌ يبتسمْ
دائماً يجلسُ البحرُ بينهما
دائماً يغتسلْ.

شَدَّهَا نحو زرقتِه
ثم مالَ على صدرها..
الظِّلُّ مرتبكٌ والعناقيدُ نيِّئَةٌ
– : تشبهينَ الخماسينَ..
أحصنةٌ تتطايرُ فوق الشِّفاهِ
براعمُ تَدْعَكُ أثداءَهَا بالنثارِ..

يوشوشُ شهوتَهَا، ويغيِّر وَضْعَ الوسادةِ
ضاقَ الممرُّ، تَلَفْلَفَتِ السَّاق بالسَّاقِ..
– : لُمِّي مرافئَ صدرِك
لا تنحني.
وانفضي شمسَ خَصْرِكِ
كوني كأنّكِ في الكهفِ وحدَكِ..

يعلو الفحيحُ
يُهَدْهِدُ طَرْقَتَهُ
ويهرولُ في جَعْبَةِ الوقتِ
يجلسُ منتشياً بين أهدابِهَا
ويَشُدُّ الشِّراعْ.
– : أنتِ نافذةٌ؟
ربَّما.
صخرةٌ
سوف تقرأُ فيها طلاسمَ نَفْسِكَ
تَألَفُهَا.
تستعيدُ حشائشَ قَلْبِكَ..
تجلسُ حولَهُما
وتُرَبِّتُ ظَهْرَيْهِمَا بحنانٍ
وتَفْرُغُ منكَ ومنّي..

الرذاذُ يلوِّنُ غَمَّازتيهِ
قِبَابٌ تطلُّ..
بأنفاسِهَا شجرٌ يتوتَّرُ
يشربُ نَخْبَ طفولتِها
ويسافرُ في وسوساتِ الهديلْ.

نجمةً من دخانٍ تُفَرْفِطُ أعشاشَهَا في يديهِ
يعلِّق في عروة البابِ تفاحةً
ويعرِّي الهواءَ..
يثبِّتُهُ في شظايا السُّكونِ..
– : أنا صائدُ البرقِ
لا اللونُ بيتي
ولا السقفُ جسميَ
أعرفِ كيف أفكّكُ جسمكِ
أصْقُلُهُ بجنوني..

تُلَمْلِمُ رقْصَتَهَا..
قطرةً
قطرةً
ينزلُ الحُلْمُ
يَحْفُرُ نَكْهَتَهُ في عروقِ الرُّخامِ
ويَشْطَحُ:
لا.. لم يكنْ ظِلَّها
هيَ صورتُهَا
تَخْتَبِي في رماد التَّجاعيدِ..
نفسُ اليدينِ، الكرانيشُ، إيماءةُ الخَصْرِ
والشَّامةُ المرمريةُ، تلويحةُ الهُدْبِ..
رمَّانةُ الشاطئينِ.
ـ: هل مشينا معاً في شوارع روما
جلسنا قليلاً بمقهى إيليت؟!

القاهـرة